الفصل الثالث :مقاربات ابستيمولوجية للموروث العربي والإسلامي بين الماضي والحاضر

المبحث الأول : ابن طفيل والفلاسفة

عند دراسة و قراءة فلسفة ابن طفيل لابد أن نعرف صلته بالفلاسفة ، حيث ذهب بعض الباحثين إلى اعتبار أن فلسفة ابن طفيل نتاج تأثره بابن باجة ، بينما يذهب آخرون إلى تأثره بالفارابي ، ويزعم آخرون أنه كان التلميذ المخلص لابن سينا ، بل انه في قد أخذ عن ابن سينا كل شيء حتى أسماء أبطال قصته ، ويزعم آخرون أنه كان متأثرة بالغزالي .

وصل الحد من ذلك إلى الزعم بأن ابن طفيل قد تأثر بالفرس وبالهنود فضلا عن اليونان ، ولعل في كلام ابن طفيل نفسه ، إذا فهم بطريقة سطحية ، ما يثبت هذه المزاعم كلها على اختلافها وتعارضها بيد أن ابن طفيل لم يدرس حقيقة في تمعن وعمق ولو درست في دقة وتمحيص أظهرت شخصيته مستقلة متميزة، وظهر له فلسفة تستقل بطابع خاص ينفي هذه المزاعم على تعددها واختلافها ,ولتوضيح هذا نرى موقف ابن طفيل من الفلاسفة :

- **موقف ابن طفيل من الفلاسفة :**

أولا : الفارابي:

بالنسبة لموقفه من الفارابي فإن ابن طفيل يعلن في صراحة " أن كتب الفارابي كثيرة الشكوك ، ويضرب أمثلة على ذلك . ويقول عن رأيه في السعادة وإنها في هذه الدار الدنيا , فهذا قد أيأس الخلق جميعا من رحمة الله ، ويصير الفاضل والشرير في رتبة واحدة ، إذ جعل مصير الكل إلى العدم، وهذه زلة لا تقال ، وعثرة ليس بعدها جبر"[1].

" حيث كان ابن طفيل ينفر من الفارابي ، وكان يصفه بسوء المعتقد في النبوة ، ويرى أنه ليس في حاجة إلى ذكر آراء الفارابي لشكوكه ولسوء معتقده.. في حين انه قد اطلع على

[1] عبد الحليم محمود , فلسفة ابن طفيل , دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني بيروت د.ط ص 19.

كتب الفارابي طبعا ، ولكنه قرأها قراءة الناقد ورفضها جملة إن لم يكن تفصيلا فليس من المعقول مع هذا أن يكون قد قلده و احتذى بحذوه "[1].

ثانيا: ابن باجة:

حسبما يرى ابن طفيل " فابن باجة* لم يكن في أهل الأندلس أثقب منه ذهن ولا أصح نظرة ولا أصدق روية ، ولكنه حسب رأيه أيضا قد شغلته الدنيا حتى أخذته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته , حيث كان ابن باجه يحث على الاستكثار من المال والجمع له ، والبحث عن الحيل في اكتسابه ؛ وهذا صارف في رأي ابن طفيل عن مواصلة المعرفة والوصول فيها إلى المراتب العليا , مراتب أولى الصدق على حد تعبيرهلذلك وصل ابن باجة إلى رتبة أهل النظر فقط وصل إلى رتبة ينتهي إليها بطريق العلم النظري والبحث الفكري ولم يتخطها, حيث إنها المرحلة الأولى ولكنها ليست الأخيرة وهذه المرحلة الأخيرة مرحلة أمل الولاية و هي كل هم ابن طفيل , وإذا كان ابن طفيل يرى أن مرحلة النظر العقلية هذه قد تصل بالإنسان إلى الصواب في الرأي وأن ابن باجه قد حقق هذا المنحى فانه مع ذلك يري أنها مرحلة بدائية بل انه قد رفض العقل وهو أساس هذا المنحى من المعرفة "[2].

ثالثا : ابن سينا :

" أما ابن سينا فقد أعجب به ابن طفيل ذلك أنه مع طريقته العقلية الصارمة ، قد تتسم مقام أولي الصدق، وأخذ في وصفه ، وإن لم يكن قد تذوقه , يقول (البارون كرادي فو) عن ابن سينا انه درس التصوف دراسة موضوعية فيه وهذا حق ؛ فلم يكن في طبيعة ابن سينا

[1] عبد الحليم محمود , فلسفة ابن طفيل م س , ص 19 .

* أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ **بن باجة** التجيبي 1138 – 1085 من أبرز الفلاسفة المسلمين، اهتم بالطب والرياضيات والفلك والأدب والموسيقى، كان أحد وزراء وقضاة الدولة المرابطية.

[2] نفسه ص 20.

أن يتصوف , ولكن ذكاءه المدهش، وقوة فطنته، وحده البارع، كل ذلك جعله يصف مراتب التصوف في كثير من الدقة "[1].

إذا نلاحظ التوافق بين ابن سينا مع ابن باجه في المرحلة العقلية النظرية ، وفي دقتهما فيها , بيد أن ابن سينا يريد عن ابن باجه أنه تتسم رائحة ما وراء الطبيعة عن بعد ووصفها وصفا موضوعيا, فيه دقة وفيه جمال , ومن هنا كان إعجاب ابن طفيل به.

" فكان ابن طفيل يخاطب ابن باجه حينما يتحدث عن الحالة التي يشعر بها الواصلون فيقول له (لا تستحل طعم شيء لم تذق ، ولا تتخبط رقاب الصديقين) فإنه بذلك يذكر وصف ابن سينا لهذه الحالة في إعجاب , ولكن ابن سينا مع هذا لم يصل إلى مرتبة العارف وهذه المرتبة التي يتطلبها ابن طفيل ولا يجد لها بديلا ، وهي ليست مرتبة نظرية عقلية, إنها مرتبة تذوق وكشف و مشاهدة , وقد كان ابن سينا بطبيعته بعيدا عنها بل حتى من ذلك فإن مرتبة النظر التي وصل إليها ابن سينا نفسها ما أدت إليه من نتائج مضافا إليها فلسفة أرسطو وأيضا فلسفة الفارابي وما كتبه مفكرو الأندلس لا تكفي في رأي ابن طفيل لمعرفة النظرية مع أنها في نظره المرحلة الأولى , يقول ابن طفيل : (ولا تظنن أن الفلسفة التي وصلت إلينا في كتب أرسطو وأبي نصر وفي كتاب الشفاء تفي بهذا الغرض الذي أردته ولا أن أحدا من أهل الأندلس كتب فيه شيئا فيه كفاية) ".[2]

" لقد زعم بعض الكاتبين أن هناك شبها بين رسالة ابن طفيل وقصة حي بن يقظان لابن سينا ، ولكن هذا الشبه غير واضح إن لم نقل معدوم ، فقصة ابن سينا قصة رمزية بأساليب عادية المعنى ، ولا أدل على ذلك من أنك إذا جردتها عن رمزيتها أصبحت عادية يمكن لكل شخص أن يكتبها "[3].

[1] عبد الحليم محمود , فلسفة ابن طفيل , م.س ص 20

[2] نفسه ص ص 21.20.

[3] نفسه.ص21.

من هذا الجانب يتضح أن ابن طفيل كان معتقدا برأيه معتزا بفكرته ، فلم يكن تابعا لابن سينا ولا مقلدا له، وإنما كان ابن سينا يمثل في نظره مرحلة من مراحل المعرفة .

رابعا: أبو حامد الغزالي :

" أما الغزالي فان ابن طفيل يقول فيه: (أدبته المعارف ، وحدقته العلوم) ويقول: (ولا شك عندنا في أن الشيخ أبا حامد من سعد السعادة القصوى ووصل إلى تلك المواصل الشريفة المقدسة) وهؤلاء الذين يرون أن ابن طفيل قد تأثر بالغزالي عذرهم حين ينساقون إلى ذلك متأثرين بهذا الرأي الذي يبديه ابن طفيل عن الغزالي , فذا كان الغزالي قد رفض العقل رفضا صارما جازما ، ومرحلة النظر في رأيه ، لا تثبت حقيقة ولا تؤدي إلى يقين، فان رسالة ابن طفيل، في مراحلها الأولى العقلية كانت رد صارم على هذا الاتجاه , وكأن ابن طفيل إنما كتبها خاصة لتكون دليلا على فساد هذا الاتجاه لابد من النظر العقلي في رأي ابن طفيل وهو وإن كان مرحلة أولى فهو مرحلة لا بد منها, انه لا يلتقي مع الغزالي في فكرته عن هذه المرحلة ، ويثبت في يقين جازم أنها مرحلة مؤدية إلى المعرفة "[1].

بما أن الغزالي في رأي ابن طفيل قد وصل إلى تلك المواصل الشريفة المقدسة فهل تأثر ابن طفيل به في هذه المرحلة التي تعتبر أسمى المراحل ؟

" إن رد ابن طفيل على ذلك واضح و لكن كتبه (كتب الغزالي) المشتملة على علم المكاشفة ، لم تصل إلينا , ويقول ابن طفيل عما كتبه : " وقد اشتمل على حظ من الكلام لا يوجد في كتاب ولا يسمع في معتاد خطاب ، وهو من العلم المكنون الذي لا يقبله إلا أهل المعرفة بالله ولا يجهله إلا أهل الغرة به "[2].

وأظن أنا لسنا في حاجة بعدما تقدم إلى أن نقول أن ابن طفيل كان مستقل الرأي وكان له نهج خاص في أساليب المعرفة .

---

[1] عبد الحليم محمود , فلسفة ابن طفيل , م س , ص 22.

[2] نفسه ص 23 .

" وإذا كان قد اعتمد على العقل في المبدأ فإنه الآن يعتمد على الرياضة الروحية ، إنه الآن صوفي بكل معنى الكلمة ، وتؤدي الرياضة بابن طفيل إلى الإشراق ، ويؤدي الإشراق إلى معرفة يضطر معها ابن طفيل إلى رفض العقل ؛ وهنا يختلف كل الاختلاف مع ابن سينا وابن باجة ولكنه في نزعته يختلف أيضا مع الغزالي , فإذا كان الغزالي قد رفض العقل فانه رفضه قبل أن يصل إلى الإشراق ، إنه رفضه بأدلة (عقلية أما ابن طفيل فلم يرفضه إلا بعد المشاهدة ، إلا بعد أن وصل إلى مقام أولى الصدق فرأى ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر "[1].

ومنه فان موقف ابن طفيل في هذا موقف طبيعي فان الاعتماد على العقل في المبدأ طبيعي ، فإذا ما وصل الإنسان إلى حق اليقين كان رفضه للعقل طبيعيا أيضا," كما يرى ابن طفيل أن ما وصل إليه عن طريق المشاهدة لا يتعارض مع الدين وإنما يتفق معه اشد اتفاق وإذا كان حي بن يقظان قد نشأ في عزلة تامة فإنه حين اتصل بأسال أخذ عنه الشعائر الدينية وعمل بها وآمن بالرسالة السماوية "[2].

هذا هو النهج الذي سار عليه ابن طفيل وهو يختلف فيه عن ابن سينا والغزالي وابن باجة ويختلف فيه أيضا عن أرسطو وأفلاطون , انه ليس بمقلد فيه وإذا قلنا إنه تأثر بغيره فانه متأثر كتأثير أفلاطون بمن سبقه وتأثر أرسطو من تقدموه.

فلقد درس أفلاطون (الأرفية) وهي شرقية الأصل ، ودرس (الفيثاغورية) وهي استمرار للأرفية , وكما نعلم فان أرسطو كان تلميذ على أفلاطون ، ودرس في مختلف نظريات الفلاسفة وعمق النظريات والكتب للفلاسفة والمفكرين الذين تقدموه فوافقهم وخالفهم , فإذا كان لأفلاطون وأرسطو مع كل هذا أصالتهما فإن لإبن طفيل أصالة أيضا .

" وإذا كان التشابه في الآراء لا يعني التقليد ، وإذا كانت كل فكرة ناشئة قد سبقت بما يشابهها ويماثلها فليس معنى ذلك أن كل فكرة ناشئة هي تقليد محض .

[1] عبد الحليم محمود , فلسفة ابن طفيل , م.س ص ص23 , 24.

[2] نفسه ص 24